الوحدة أساس النصر أو الهزيمة

د . عصمت سيف الدولة

لن نتحدث في الذكرى الحادية عشرة لوحدة ١٩٥٨ إلى الذين يبحثون عن الوحدة .. مع من أو عن الوحدة .. كيف، أو عن الوحدة .. متى.

بل سيكون حديثنا إلى الذين يحاولون ولو بالدم، أن يجدوا الإجابة عن أخطر الأسئلة المطروحة في الوطن العربي وأكثرها واقعية: كيف ننتصر؟

أولا: لمن الحديث عن الوحدة

في مثل هذا الشهر شباط/ فبراير- من عام ١٩٥٨، ألغيت التجزئة بين مصر وسورية وقامت دولة الوحدة النواة باسم الجمهورية العربية المتحدة. وفي أيلول / سبتمبر من عام ١٩٦١ اغتصب الانفصاليون الإقليم الشمالي. وفي حزيران / يونيو من عام ١٩٦٧ حاولت القوات العربية أن ترد الخطر الصهيوني الذي يتهدد سوريا فلم تستطع إلا أن تقاتل على أرض سيناء ... بينما هي تدافع عن دمشق.

١- وكان ما كان

واليوم تعود ذكرى وحدة ١٩٥٨ ، وقد أضافت الأيام التي انقضت منذ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ أبعادا جديدة للصراع، أضيفت إلى مسؤولية استرداد الأرض التي احتلت، مسؤولية منع استقرار العدو على الأرض المحتلة حتى تسترد، وأضيفت إلى ساحة المعركة التي دار عليها القتال في الأسبوع الأسود من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ساحات جديدة، في داخل فلسطين السليبة، وفي كل مكان من الوطن العربي، وأينما استطاع المناضلون العرب أن يبطشوا بأعدائهم من الصهاينة في أي مكان من العالم. ولم يعد أحد يذكر حتى الأسباب التي كانت ذريعة القتال في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، فقد عرت الأيام نيات المعتدين، وكشفت حتى لأقصر الناس نظرا أعماقا جديدة للمعركة، فلا هي معركة أمن الحدود الإسرائيلية ولا هي معركة الملاحة في خليج العقبة، ولكنها معركة تدور- بلا مواربة- حول الوجود والمصير. هذا، وكل يبذل كل ما يستطيع إعدادا لجولة قادمة ستفرض ذاتها على الذين يريدونها والذين لا يريدونها، وسيدفع كل طرف فيها الثمن المناسب لطموحه، ولن يكون النصر فيها رخيصا.

نحن، إذن، على أبواب مرحلة عاصفة تفرض علينا أن نحشد لها كل فكرة، كل كلمة، كل حركة، كل قوة، إذ فيها سنخوض واحدة من أخطر معارك المستقبل العربي. إن هذا يلقي على الجادين من الناس مسؤوليات جسيمة وملحة تحجب قضايا الماضي وتحيل الحديث عنه إلى نوع من الاجترار الكسول الذي لا تطبقه الظروف الخطيرة التي تمر بها أمتنا العربية. فلماذا الحديث عن الوحدة، ولمن الحديث عن الوحدة؟

لقد كانت وحدة ١٩٥٨ قمة انتصار النضال العربي. نعم ولكن ألا ينبغي أن نتعلم كيف نكون " واقعيين " فنشغل أنفسنا بالمشكلات الجسيمة التي يطرحها علينا الواقع المهزوم بدلا من إعادة الحديث عن أيام النصر الذي انقضى. لقد كانت وحدة ١٩٥٨ " نواة " دولة الوحدة العربية الكبرى. نعم، ولكن أليس أجدى علينا من

الحديث عن " نواة " الدولة التي كنا نريد أن نغرسها في الأرض العربية أن ننتبه إلى القوى التي تغتصب منا الأرض قطعة قطعة؟

٢- الوحدة .... مع من ؟

ألا يعني طرح السؤال أو البحث عن إجابة عنه- الآن- أننا ننكأ جروحا قديمة بينما جروح؛ المعركة تنزف، وتخلخل جبهة الخطر الداهم بما نثيره من أسباب التمييز المستفز ؟

٣- الوحدة .... كيف ؟

ألا يعني طرح السؤال أو البحث عن إجابة عنه- الآن- أننا نشد انتباه المناضلين في ساحة المعركة المحتدمة إلى ساحات معارك أخرى غير قائمة، وأننا نشغلهم عن المواجهة المسلحة ضد الصهيونية بمواجهة كلامية ضد الإقليمية.

٤- الوحدة .... متى ؟

ألا يعني طرح السؤال أو البحث عن إجابة عنه- الآن – أننا نحاول الهروب من المسؤوليات المحددة التي تطرحها الظروف التي نحياها الى تاريخ الوحدة في مرحلة انتهت أو إلى آمال الوحدة في مرحلة لم تحل.

من أجل هذا كله، لن نتحدث في الذكرى الحادية عشرة لوحدة ١٩٥٨ إلى الذين يبحثون عن الوحدة . . مع من؟ أو عن الوحدة .. كيف ؟ أو عن الوحدة.. متى؟ ولن نتحدث حديثا ينكأ الجروح ويثير الفرقة، أو يصرف انتباه المناضلين عن ساحة المعركة المحتدمة، أو يفتح أبواب الهروب من مسؤوليات المرحلة التاريخية التي نواجهها، بل يسكون حديثا غلى الذين يحاولون، ولو بالدم، أن يجدوا الإجابة عن أخطر الأسئلة المطروحة في الوطن العربي، وأكثرها واقعية" كيف ننتصر ؟

فان رأينا، رغم كل شيء أن الحديث عن المعركة الدامية والنصر المأمول يعود فيدور عن الوحدة العربية، فتلك، إذن، ضرورة تفرضها العلاقة الموضوعية بين الوحدة والنصر لا حيلة لأحد فيه ، وبالتالي لا جدوى لأحد في الهروب منها. عندئذ يكون على الذين يعتقدون أن الحديث عن الوحدة العربية بينما المعركة محتدمة حديث غير واقعي، أن يكونوا هم أنفسهم أكثر معرفة بواقع المعركة التي نخوضها، وبما يعنيه النصر الذي يريدون.

ثانيا: لماذا يجب أن نقاتل؟

لا يمكن أن يستحق النصر كل من يتمناه، ولكن يستحقه ويقدر عليه من يعرف لماذا يريده لأنه عندئذ يكون قد اختار الغاية التي يناضل من أجلها، وتكون المعركة بالنسبة أليه محنة متوقعة على الطريق غايته، فلا يفاجأ بها، ولا يستدرج إليه ولا تفرض عليه، وإنما يخوضها في الوقت الذي يريد هو يعلم لماذا يخوضها ولاذا يخوضها في هذا الوقت بالذات. نريد أن نقول إن الذي يعرف معرفة اليقين لماذا يقاتل يملك أهم أسباب النصر: معرفة حقيقة المعركة، وطبيعة القوى المشتركة فيها، ونوع وحجم القوة اللازمة لها، والوقت المناسب لاستعمالها، وأهم من هذا لا تحجب عنه مناورات الصراع الغية التي يريدها، فلا يرتد عنها ولا يساوم عليها، ولا يتوقف دونها، يكون مالكا، دائما، زمام المبادرة كما يقولون. فلماذا يجب أن نقاتل الصهيونية؟

قد يبدو أن الإجابة بسيطة. فنحن نقاتل الصهيونية لأن إسرائيل قد اعتدت علينا واحتلت سيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان، فنحن نخوض المعركة أو يجب أن نخوضها " لإزالة آثار العدوان " إن هذا يعني أننا عندما نزيل آثار عدوان ٥ حزيران / يونيو ١٩٦٧ نكون قد حققنا النصر وأنهينا المعركة ضد الصهيونية لصالحنا. وهذا لا يكون صحيحا إلا إذا كانت المعركة بيننا وبين الصهيونية قد بدأت في ٥ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ ، وأن غايتنا منه أن تعود قوى العدوان إلى المواقع التي كانت فيها قبل ذلك اليوم المشؤوم. ولكن هذا غير صحيح فلا المعركة بدأت يوم حزيران / يونيو ١٩٦٧ ، ولا كانت غاية أعدائنا منه احتلال سيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان، ولا تعتبر منتهية بالنسبة إلينا، أو بالنسبة أليهم، بعودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل العدوان الأخير.

ذلك لأن المعركة بدأت قبل ذلك بسنين طويلة، لتحقيق غايات محددة ثابتة، لم تتغير تبعا لنتائج المعارك العسكرية التي نشبت منذ سنة ١٩٤٨، لأن تلك المعارك العسكرية لم تكن مقصودة لذاتها ولكنه كانت التحامات دموية بين قوى متصارعة تحاول كل منها أن تشق طريقها إلى غايتها.

ثالثا: ماذا يريد الأعداء؟

فقبل أن تستقر الصهيونية العالمية على تحديد اغتصاب فلسطين وإقامة دولة إسرائيل على الأرض العربية غاية لها، أي حتى عندما كانوا يبحثون عن أي مكان في الأرض يقيمون عليه دولتهم، كانت القوى الاستعمارية قد استقرت على إقامة دولة حاجزة بين المشرق العربي والمغرب العربي، غايتها أن تتحول دون وحدة الأمة العربية وتسيطر لحساب الإمبريالية الغربية على ذل الممر المائي البالغ الأهمية الذي يبدأ من باب المندب حتى بور سعيد يشمل البحر الأحمر وقناة السويس. أن الوثائق الدولية التي كشفت هذا المخطط الاستعماري وغايته المحددة: "الحيلولة دون الوحدة العربية" لا حصر لها ، ولم تدخل الصهيونية طرفا منفذا في هذا المخطط إلا لأن الغاية المحددة منه كانت تقتضي أ،تكون الدولة الحاجزة من تكوين بشري غير عربي. ومن المعروف أ، بريطانيا كانت قد بطرت في حشد إحدى الطوائف الدينية العربية في فلسطين لتكون دولة مستقلة حاجزة، ثم عدلت عن المشروع لما ثبت لديه أن النزوع العربي الوحدوي سيهزم في المدى الطويل العزلة الطائفية فتحقق الوحدة . عندئذ قدمت الصهيونية الغربية الأداة البشرية، وأصبحت إقامة دولة إسرائيلية حاجزة على أرض فلسطين حلا موفقا يحقق غايات الصهيونية والإمبريالية معا.

في سنة ١٩٣٧ نشر باللغة الفرنسية بعنوان الله أكبر ألفه محمد أسعد بك وهو اسم مستعار لأحد عملاء الصهيونية، والكتاب عبارة عن تقرير مقدم الى أحد قادة الحركة الصهيونية العالمية، وهو المستشرق النمساوي فولفقانغ فايست . يقول كاتبه:

"إن خلاصة الأسباب والجدية للكفاح من أجل الأرض المقدسة هو موقعها الاستراتيجي وتأثيره في مستقبل المنطقة. فلو عادت فلسطين الى دولة عربية موحدة تضم مصر لقامت هناك قوة عربية مسلحة تستطيع أن تتحكم في قناة السويس والطريق إلى الهند"

"أما إذا ظلت فلسطين مستقلة، أو أصبحت دولة يهودية، فإنها ستقوم عقبة في سبيل إنشاء هذه الدولة الكبرى، حتى لو تمت الوحدة بين دولة عربية وأخرى على جانبي فلسطين. إن دولة صغيرة "حاجزة" تقوم على ١٠٠٠٠ كيلومتر مربع على ضفتي نهر الأردن ستحمي كل دولة عربية ضد تدخل أية دولة عربية أخرى...

"إن توازن القوى حول قناة السويس يتوقف، إذن على حيدة فلسطين بالنسبة إلى العالم العربي يتوقف على دولة في فلسطين تكون كسويسرا عند ملتقى القارات الثلاث. إن هذه الحيدة تتفق تماما مع طموح الاستعمار اليهودي، فلك لأن اليهود وحدهم هم الذين ستكون له مصلحة في هذه الحيدة وليس العرب المسلمون، إذن ، إن هؤلاء سيكون من الدعاة المتحمسين للاندماج في دولة عربية كبرى "

رابعا: هذا تاريخ قديم

فلنسمع إذن ماذا يقول الصهاينة في التاريخ الحديث:

- في تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٥٨- قيام وحدة ١٩٥٨- نشرت مجلة الابزرفاتور دو موايان أوريان الصهيونية مقالا بمناسبة الذكرى الثانية لعدوان ١٩٥٦ قالت فيه :

"إن التفوق الإسرائيلي في المنطقة دعامة للسلام. فمن نتائجه أن ساد على الحدود الإسرائيلية هدوء لم يكن معروفا من قبل. كما أنه قدم ضمانا لحماية الوضع القائم ضد المحاولات "الوحدوية" لقد أصبح واضحا أن حفظ التوازن في ما بين الدول العربية المجاورة لإسرائيل والدول العربية عموما مهمة يتولاها الاسرائيليون وتدخل في نطاق واجبا تهم. إننا نقوم هنا، إذا صح التعبير، على تنفيذ مبدأ مونرو" خاص بالشرق الأوسط. إن القرار الذي اتخذناه بهذا الخصوص منذ عشر سنوات (أي منذ ١٩٤٨؟) قد أدى إلى الاستقرار والسلام بدلا من الخوف..."

- وفي كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦، قال أبا ايبان في تصريح له في لندن: "يجب أن يكون واضحا أن مصير المنطقة العربية لا يمكن أ، يكون "الوحدة" بالعكس انه في الاستقلال القائم على التجزئة. إن المواجهة ليست بين" الوطن العربي" وبين إسرائيل، ولكن بين أولئك الذين يريدون السيطرة على الدول العربية (يعني القوى الوحدوية) وبين الذين يقاومون تلك المحاولة. ان محاولة تعميم العداء بين العرب وإسرائيل قد فشلت... ان هذا يقدم دليلا على فاعلية سياستنا القائمة على القوة من ناحية والتجزئة من ناحية أخرى ... "

- وأخيرا، فان غاية الصهيونية كما تعلنها هي أن تقيم دولة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل . وهي غاية مضافة إلى وظيفتها في خدمة الإمبريالية الغربية، وان كانت غاية خاصة بالحركة الصهيونية. ولأن إسرائيل لا تخفي هذه الغاية، فإننا في غير حاجة إلى أن نعيد سرد ما يعلنه الصهاينة من تصميم على تحقيقها. ولكننا قد نكون في حاجة إلى أن نشير إلى أن اسرائيل قد أعلنت مرارا أنها لا تعارض في تجميع اللاجئين العرب في دولة فلسطينية تكون اتحادا مع اسرائيل يكون تحت سيطرة الاسرائيلين، ويحقق الغاية الأساسية وهي عزل فلسطين أرضا، وبشرا إن أمكن، عن الأمة العربية والوطن العربي، بل ان بقض الذين يتشدقون بالتقدمية في اسرائيل يذهبون في هذا إلى حد النفاق مع أبناء فلسطين بما يقدمونه من عروض خبيثة وان كانت تخدم في النهاية الغاية التي قامت اسرائيل من أجلها .

خامسا: دعم تجزئة الوطن العربي

يقول اوري افتيري رئيس منظمة " حركة القوى الجديدة" التي تدعو إلى الوحدة السامية (وليست العربية) وتصدر نسخة باللغة العربية باسم هذا العالم من صحيفتها هالوم هنري في مقال كتبه لمجلة الأزمنة الجديدة التي يصدرها سارتر: " أن أي سلام عربي – إسرائيلي يجب أن يتفق عليه بين اسرائيل و(الأمة) الفلسطينية وليس ثمة أي فرصة للسلام مع إنكار وجود تلك (الأمة) ... إننا نعترف بوجود (الأمة) الفلسطينية، ولكننا

نتمنى أن تتحرر هي من الوصاية الأجنبية (وصاية الدول العربية) وان تتقدم كطرف في الحوار بشخصيتها المستقلة. أن عروضنا من أجل السلام مقدمة إلى هذه الأمة وليس ال العالم العربي .... "

طبيعي أن أوري افتيري يخادع حتى في هذا ، ولكننا أردنا أن نؤكد من أقواله، أنه أيا كانت الاتجاهات في اسرائيل ، فان هناك غاية ثابتة للوجود الإسرائيلي هي شطر الأمة العربية بحاجز بشري ذي كيان سياسي مستقل يقوم حاجزا دون (الوحدة العربية).

ان آلافا من الأغراض التكتيكية والمرحلية الأخرى قامت وتقوم كأهداف للمعارك التي تخوضها الصهيونية في سبيل تحقيق غايتها الأساسية. بدأت بشراء الأرض ، ثم باغتصاب فلسطين، ثم بعدوان ١٩٥٦، ثم بعدوان ١٩٦٧، وفي كل مرحلة، وفي كل معركة تحاول الصهيونية والقوى المتحالفة معها أ، توهم العالم- ونحن منه- بأن تلك آخر معركة ، وأن ما حققته هو أقصى ما تريد، وإنها لا تطلب إلا أن يعترف له بما فعلت ثم يسود السلام إلى الأبد. وفي كل مرحلة، وفي كل معركة ينخدع بعض الناس فيعتقدون أن الصراع ضد الصهيونية قائم حول حقوق اللاجئين في أرضهم ومزارعهم، أو حول حقوق العرب في العودة إلى فلسطين، أو حول تأمين الحدود ضد العدوان الاسرائيلي أو حول إزالة آثار العدوان. وطبيعي أن الذين ينخدعون يفقدون أول أسباب النصر في المعركة التي يخوضونها وهو المعرفة الصحيحة بحقيقة الأغراض التي يدور حولها الصراع بين الحركة العربية القومية وبين الحركة الصهيونية، تلك الأغراض التي سيتحدد في ضوئها النصر أو الهزيمة في ذلك الصراع الطويل.

وقد عرفنا مما سبق أن الغاية النهائية الشاملة لكل الغايات المرحلية، هي الحيلولة دون وحدة الدول العربية هذا ما يريده الأعداء وما يقاتلون من أجله. فما الذي نريده نحن؟

سادسا: ماذا نريد ؟

عندما بدأ التسلل الصهيوني إلى فلسطين كنا نريد أن نحول دون الهجرة الإسرائيلية وعندما انسحب البريطانيون قاتلنا من أجل تصفية العصابات الصهيونية. ومنذ ذلك الوقت ونحن نخوض المعارك دفاعا ضد التوسع الإسرائيلي. وقد هزمنا مربين- والمعركة تتسع عاما بعد عام، وتنتقل من أغراض محددة إلى أغراض أشمل، وتتخطى مرحلة إلى مرحلة.

ومنذ حزيران / يونيو ١٩٦٧ جذب الصراع العربي الصهيوني إلى ساحته أفرادا وجماعات ودولا وشعوبا من أطراف الأرض جميعا. بحيث يمكن أن يقال – دون أية مبالغة- إن كل القوى النشيطة في العالم أصبحت أطرافا نشيطة في صراع أصبح شاملا وعالميا معا. ولكل قوة نشيطة غاية تريدها . ففي صف المكافحين ضد الصهيونية من يقاتلون من أجل استرداد أموالهم ومزارعهم، ومن يقاتلون في سبيل العودة إلى أراضهم، ومن يقاتلون من أجل إزالة آثار العدوان، ومن يقاتلون من أجل استرداد أرض فلسطين لحساب دولة فلسطينية مستقلة ثم من يقاتلون من أجل استرداد فلسطين من أجل إقامة دولة الوحدة العربية.

كلهم رفاق في المعركة. وكلهم يساهم بما يبذل في سبيل هزيمة الصهيونية، ومن هنا فكلهم سواء في شرف القتال ضد المستعمر على الأرض العربية، إلا أن هذا لا يعني أبدا أن للصراع العربي الصهيوني غايات متعددة بتعدد المساهمين فيه مرحليا، أو أن النضال العربي ضد إسرائيل ذو أهداف بديلة يغني بعضها عن بعض، ويدخل تعضها في سوق المساومة على الأهداف الأخرى، ذلك لأن غاية الصراع، وموضوع المعركة، وحقيقتها ، محددة بموضوع التناقض الأساسي، بين الحركة القومية العربية والحركة الصهيونية:

الوحدة العربية، أي أننا موضوعيا وتاريخيا، حضنا ونخوض معركة الوحدة العربية ضد قوة معتدية خاضت وتخوض معركة ضد الوحدة العربية.

هل يستطيع أي واحد في الصف العربي أن يغير من هذه الحقيقة؟ لا! يستطيع أن يجهل، أو يتجاهل، أو ينسحب من العركة، أو يرضى بنصيب منها، ولكن هذا سينهي المعركة بالنسبة إليه، وقد يحقق نصره الخاص ويكتفي به، وتبقى المعركة دائرة حول موضوعها الحقيقي بين القوى التي تريد أن تحقق دولة الوحدة العربية وبين الصهيونية التي تريد أن تقيم دولتها على الأرض ذاتها التي يدور حولها الصراع. هكذا بدأت المعارك حتى قبل أن تجذب إلى ساحتها كثيرا من القوى المشتبكة فيها منذ ٥ حزيران ١٩٦٧، وهكذا ستنتهي المعارك ، بالرغم من كل المحاولات التي تريد أن تصطنع سلاما مؤقتا على الأرض العربية. وهكذا لن يكون ثمة نصر عربي يستحق الهتاف له إلا يوم تنتصر الحركة القومية فتقيم دولة الوحدة. وعندئذ فقط ستكف الصهيونية ومن هم وراءها عن العدوان لأن غايتهم التي قاتلوا ويقاتلون من أجلها تكون قد انهزمت نهائيا.

إن هذه المعرفة بحقيقة المعركة بين الأمة العربية وأعدائها لازمة كشرط أولي وأساسي للقدرة على النصر. إنها تكشف لنا مدى ضراوة المعركة فنعد له أنفسنا ومعداتنا، وتكشف لنا مدى طول الصراع فنخطط في ضوئه مستقبلنا، وتكشف لنا غايته فتقيس عليها مواقفنا ومواقف أصدقائنا وأعدائنا، وأهم من هذا كله تضع بين أيدينا المحك الذي نفرق به بين النصر والهزيمة بين النضال والاستسلام، فنعرف معرفة اليقين أنه مهما تكن المواقف التكتيكية التي تضطرنا إليها تطورات الصراع، فان القبول بإنهاء المعركة ضد الصهيونية قبل أن تتحقق دولة الوحدة العربية، هو قبول بالغايات التي قامت من أجلها إسرائيل، فهو هزيمة واستسلام حتى لو دمرنا قوة إسرائيل العسكرية ثم توقفنا دون غايتنا القومية التي قاتلنا ونقاتل من أجلها.

سابعا: ثم ...

هل ثمة حيلة لأحد في أن أي حديث موضوعي لأية مشكلة عربية بقصد حلها لا يلبث حتى يصبح حديثا عن الوحدة العربية؟ ألم تكن وحدة ١٩٥٨ – إذن – التعبير الصحيح عن الحل التقدمي لمشكلات الوطن العربي كله؟ ألم يكن الانفصال خيانة معدة مقدما لشهدائنا في سيناء والضفة الغربية ومرتفعات الجولان؟

بلى، فتحية لكل الوحدويين ولتسقط الإقليمية الصهيونية

(*) المصدر: الفكر المعاصر، العدد ٤٨ (شباط/ فبراير ١٩٦٩)، ص ٦- ١١.